

(١٨) خطبة له ﷺ

يوم الفتح

لما تم فتح مكة سنة ثمان من الهجرة، وقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم، على باب الكعبة، فقال:

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة^(١) ، أو دم ، أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة^(٢) البيت وسقاية الحاج . ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ، ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل: أربعون منها في بطونها وأولادها .

يا معشر قريش.. إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها^(٣) بالآباء. الناس من آدم وادم خلق من تراب .
ثم تلا هذه الآية:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾^(٤) .

(١) أى : أمر يستأثر به .

(٢) السدانة : خدمة الكعبة .

(٣) النخوة - بفتح فسكون - الشرف والكبر والفخر بالآباء ، ولم يرد إبطال النسب بل إبطال التشرف به ، لأن الشرف الحقيقي لا يكون إلا بالتقوى . والتعظيم : التكبر .

(٤) سورة الحجرات : ١٣ .

ثم قال : « يا معشر قريش.. ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فانتم الطلقاء » .

(ذكرها ابن هشام)

فى هذه الخطبة الجامعة - كما قرأنا - يتضح لنا كيف كان النبى ﷺ موجهاً ومرشداً ، وكيف كان رحمة للعالمين ، فهو هنا صلوات الله عليه وسلامه - فى هذه الخطبة - وبعد أن أعلن ما أراد إعلانه بالنسبة لإبطاله بعض آثار الجاهلية : يقول لهؤلاء الذين طردوه من بلده ، والذين كانوا يظنون أنه سيفتك بهم فى هذا اليوم الذى دخل فيه مكة فاتحاً فى عشرة آلاف من جند الله : « ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » . فيقولون : « خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم » . فيكون جوابه ﷺ : « اذهبوا فانتم الطلقاء » . أى : الأحرار . . وزاد على ذلك كما فى رواية أخرى :

﴿ لَا تَرْيَبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١) .

فكانت النتيجة لهذا العفو المحمدى : أن دخل أكثرهم فى دين الله أفواجاً ، وإلى هذا قد يشير قول الله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ (٢) .

(١) سورة يوسف : ٩٢ .

(٢) سورة النصر .

* وفى القرآن الكريم يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٤) .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المقتدين برسول الله ﷺ
فى عفوهِ وكرمه وحلمه . . آمين .

* * *

(١) سورة الأعراف : ١٩٩ .

(٢) سورة الحجر : ٨٥ .

(٣) سورة آل عمران : ١٣٤ .

(٤) سورة الشورى : ٤٣ .